الفصل العاشر

معركة السلام

ليس السلام مجرد هدف بعيد نسعى إليه، بل وسيلة للوصول إلى ذلك الهدف.

الدكتور مارتن لوثر كينج ـ الابن 1967

عندما انتهت المواجهة الباردة بين القوتين العظميين اطمأن معظم من في العالم الأول للاعتقاد بأن الحياة على وشك أن تصير أسهل كثيراً. فلم تعد هناك مخاوف من المصير النووي، ولا مخاوف من عنف يزلزل العالم بأسره، ولم يعد هناك فصل مطلق بأسوار حديدية بين الشعوب الحرة والدول المستبدة التي تستعبد شعوبها. كما لم يعد هناك تنافس كوكبي للاختيار بين الشيوعية والرأسمالية، فقد انتصرت الديمقراطية واقتصاديات السوق. وتحرر الجميع، وتنفس كل فرد على ظهر الكوكب الصعداء؛ فالآن يستطيع الجميع التطلع إلى حقبة طويلة من الهدوء والسلام والرخاء والنمو التدريجي.

ونحن لم نزل في الانتظار.

فكم سيستغرق تحقيق سلام عالمي حقيقي؟

طوال سنوات عملي في الخدمة العسكرية، وبصفة خاصة أثناء السنوات الثلاث التي قضيتها في رئاسة القيادة المركزية. رأيت عدداً كبيراً من المجتمعات في حالة فوضى، ورأيت قدراً كبيراً من

الاضطراب والصراع، وقدرًا كبيرًا من الألم والمعاناة. رأيت الاضطراب في إحدى الدول يتجاوز حدودها ويثير الفتنة على بعد مئات وربما آلاف الأميال من المصدر الأصلي. ورأيت أن العالم الأول ليست لديه مناعة تجاه الاضطرابات. كما علمنا جميعاً في 11/9 وفي مدريد في مارس 2004 وفي لندن في يوليو عام 2005 ورأيت بلادي وبقية دول العالم المتقدم تواصل الانعزال بقدر المستطاع عن العالم المضطرب، وتجعله متعمدة بعيداً عن أعيننا وبعيداً عن أذهاننا.

لقد أمعنت التفكير في الاضطرابات والعنف والفوضى التي وقعت في أوقات سابقة في أماكن بعيدة تماماً بحيث لم تتمكن من التأثير علينا قط. وكنا دائماً نتجاهل هذه الأوضاع مطمئنين، ولكن لم يعد بمقدورنا عمل ذلك بالقدر نفسه من الاطمئنان. فالسلسلة بين السبب الأصلي والنتيجة النهائية طويلة جداً، وغالباً ما تكون شديدة الغموض، لدرجة أننا نادراً ما ندرك الصلة بين الألم الذي نشعر به في النهاية وبين الجرح الأصلي الذي أشعله لكن الصلة موجودة.

لم نعد محصنين ضد مشكلات العالم «الآخر» الملتهبة. ولم يعد بإمكاننا رفض الاستثمار في منعها أو حلها. فإن كنا سنحقق سلاماً حقيقياً ودائماً في العالم بأسره ـ سلام يكفل الأمن للعالم المتقدم وكذلك لما تسمى منطقة الصراع ـ فلا يمكننا الاهتمام بأنفسنا فقط وتجاهلهم. بل سيكون علينا بذل الجهود للتخلص من الاضطرابات والعنف والفوضى هناك.

فما المطلوب لإيجاد سلام حقيقي؟

كنت على الخطوط الأمامية في عدد لا بأس به من الحروب، ورأيت من العنف ما يكفي لمعرفة أن السلام الحقيقي ليس وضعاً خاملاً، وليس حالة من الخمول، وليس حالة من السكون أو الهدوء، كما أنه ليس مجرد حالة من غياب الاضطراب، وليس حالة غياب من أي نوع؛ بل إنه حضور وفعل، وعليك إيجاده والعمل من أجله طوال الوقت، فإنك لا تستطيع أن تطفو على الماء وحسب، وإنما عليك أن تسبح.

كما أن السلام ليس الحالة الطبيعية في أي مجتمع، في الأوضاع العادية للمجتمع. فهو ليس الوضع الأصلي ـ جزيرة استوائية كالجنة ترفل في النعيم والترف. إنه صناعة بشرية، تماماً مثلما أن النظام التعليمي صناعة بشرية... وتماماً مثلما أن الحرب صناعة بشرية.

إن المجتمع الآمن المستقر سيكون مجتمعاً حيّاً مفعماً بالنشاط والحيوية، ويتسم بفاعلية مستمرة. وسنرى فيه طبقة متوسطة نامية وازدهاراً متصاعداً. سيسود فيه الأمن والنظام وسيادة القانون. كما أن كافة المؤسسات الأخرى فيه ـ مثل الشرطة والرعاية الصحية ـ موضع ثقة، وسينحسر الفساد فيه إلى أدنى حد له، وسيجد الناس الإشباع والرضا في هوياتهم الشخصية أو الثقافية أو العرقية أو الدينية، لكن مؤسسات المجتمع ستكون قوية بما يكفي لتقليل الخلافات بين أنواع الهوية المختلفة. وسيكون التعامل مع الصراعات عن طريق المؤسسات المدنية، وليس عن طريق العنف. أما وسائل الإعلام فستكون مفعمة بالنشاط والتحفز، وستتحدى الوضع القائم ومن في السلطة بكل حرية.

ولا يوجد سلام حقيقي إلا في عالم مستقر، عالم يصل فيه إلى هذه الحالة المحمودة أكبر عدد ممكن من المجتمعات. وفي المجتمع المستقر يكون لدى الناس مؤسسات تدعم الرخاء والتقدم، وستكون مؤسسات قوية لدرجة تمكنها من إدارة البيئة (كل شيء متاح للاستخدام أو للتعامل)، ولا سيما العناصر الموجودة في البيئة، وتهدد بإفساد المجتمع.

وحتى في المجتمعات شديدة الاستقرار مثل مجتمعنا، يمكن للبيئة أن تنفث علينا عاصفة شديدة الخطورة تجعلنا نترنح. ففي أغسطس 2005، اجتاح إعصار كاترينا ولايات الخليج الرئيسة، وسوَّى بالأرض مناطق هامة من مدن مثل بيلوكسي، وميسيسيبي، وأباد نيو أورليانز. فهل كان يمكن أن تزعزع آثار هذه العاصفة استقرار الولايات المتحدة؟ لم يحدث، لكن يمكن لكارثة طبيعية من هذا النوع أن تضر أشد مؤسساتنا استقراراً ضرراً بالغاً؛ إذ يمكن أن تضر باقتصادنا إلى درجة خطيرة، وأن تؤذي نسبة كبيرة من السكان، كما يمكنها أن تتسبب في انهيار عدد كبير من المؤسسات المحلية التي تعمل على تيسير حركة أي مجتمع. وكانت كل هذه الآثار ستتفاقم لو تأخرت المؤسسات الفيدرالية في الاستجابة لها، أو لو تحولت إجراءاتها إلى إجراءات مختلة وظيفياً. ولنتخيل كيف لو أصابت مثل هذه الكارثة المناطق المضطربة في العالم، حيث توجد مؤسسات تتصف بأعلى درجات الجمود.

قلما نجد مكاناً في عالمنا يتيح للمجتمعات الإنسانية حياة آمنة. ومن الصعب أن تجد جزءاً في العالم ليس عرضة لضربات من مجتمعات أخرى أو من الطبيعة... أو منهما معاً في تركيبة فظيعة. فالمجتمعات والدول تحتاج كل ما يمكن أن تحصل عليه من عون. من البيئة التي أسعدهم الحظ، أو أتعسهم بوجودهم فيها، ومن المؤسسات التي ينشئونها ويحتاجون المزيد والمزيد من هذا العون من الخارج.

ثعبان الكوبرا والنحل

كما بيّن الحادي عشر من سبتمبر وإعصار كاترينا أن الولايات المتحدة ليست محصنة ضد الضربات القوية، سواء من أعداء أو من الطبيعة. ساعتها تكون ثمة لحظات عصيبة حين لا يجد الأمريكيون أنفسهم حياة آمنة.

فما التهديدات الجديدة التي تتعرض لها بلادنا؟ وهل ينبغي أن نشعر بالقلق جرّاء اضطرابات وفوضى في النصف الآخر من العالم؟

إننا نعرف بالفعل أن العالم تغير تغيراً جذرياً حين سقطت الإمبراطورية السوفيتية. قبل ذلك، كانت عندنا الشيوعية والحرب الباردة، ونظام عالمي مستقر، ولو أنه محفوف بمخاطر عظيمة.

كما أننا نعرف تماماً أن طرائق التفكير القديمة في الشؤون العالمية لم تعد صالحة؛ فقد فقدت الشيوعية والمخاطر المباشرة للحرب النووية الفاصلة تأثيرها. كما أن الأدوات القديمة التي أنفقنا على تجهيزها مبالغ طائلة لمواجهة التهديدات القديمة لم تعد فاعلة تجاه التهديدات الجديدة... فالتهديدات الجديدة غامضة ومربكة وحافلة بالشكوك.

وعندما نواجه التهديدات الجديدة، نجد أنفسنا أمام إحدى صيغ العبارة التقليدية: «آخر ساحات الحرب هي ما تشتبك فيه الجيوش» إذ نحاول مواجهة التهديدات الأخيرة. وكما حدث في أمور أخرى كثيرة في حياتنا القومية، أعطت الحرب العالمية الثانية النموذج... لكن مع إضافة النتيجة الطبيعية للحرب الباردة.

ففي الحرب العالمية الثانية كنا نحارب «خطر النظم الشمولية»، وقمنا بتكييف النموذج على الحرب الباردة. وصار «التهديد» هو الشيوعية المسيطرة التي تجتاح العالم. ولكن لأن القوة التي كان يمكن لخطر واحد متماسك حشدها ضدنا والقوة التي كان يمكننا حشدها ضده كانت تجازف بتدمير كافة مظاهر الحياة على الأرض، لم يكن الهجوم المباشر هو الخيار الأفضل بالنسبة لنا، فاخترنا بدلاً من هذا احتواء التهديد وردعه، وقد نجح ذلك.

وثمة خط صاعد واضح لا يمكن إنكاره يبدأ بالتهديد ثم الصراع ليصل إلى الحرب العالمية الثالثة ـ أي إلى كارثة عالمية. وقد أضفنا هذه النتيجة الطبيعية للحرب الباردة إلى نموذج الحرب العالمية الثانية. فحسب نموذج الحرب العالمية الثانية/ الثالثة، فإن التهديدات الوحيدة التي تؤخذ بعين الاعتبار لابد أن تكون عسكرية (هجوم) أو كارثية (حرب عالمية ثالثة) ولابد من مواجهتها باستخدام قوة عسكرية عنيفة.

دعنا نواجه الأمر: لم تعد الحرب العالمية الثالثة تجعل المخططين العسكريين في حالة ترقب أو قلق شديد (برغم إمكانية تصور

اندلاعها لو أصيبت بعض الأنظمة التي تمتلك أسلحة نووية بالجنون التام)؛ كما أن التهديدات العسكرية الخطيرة الأخرى التي يمكن أن تواجه الولايات المتحدة نادرة، فلن تقوم أي دولة بغزو الولايات المتحدة. وليست هناك دولة عاقلة تختار حتى خوض حرب عسكرية تقليدية ضد الولايات المتحدة. يمكن تصور دخول حرب مع الصين، لكنه أمر غير محتمل، لكن هناك احتمال أكبر لدخول حرب مع كوريا الشمالية، إذ يمكن أن تجلب إلى هذا البلد حفنة من القنابل النووية وتفجرها... لكن ثمن ذلك انتقام ساحق. وربما تمثل إيران تهديداً مماثلاً خلال عقد أو اثنين، لكنها ستدفع ثمناً باهظاً أيضاً. هل هناك تهديدات عسكرية أخرى محتملة؟ لا أظن.

لكن الهجمات العنيفة لا تنتهي. فأي منظمة تتمكن من تحويل طائرة عادية إلى طائرة انتحارية، تقتل آلاف الناس وتسقط اثنين من أطول مباني العالم، يمكن أن تجد وسائل أخرى لتحدث دماراً عنيفاً. فقد يمتلك تنظيم القاعدة أو غيره من التنظيمات الإرهابية أسلحة دمار شامل ويستخدمونها هنا أو في أوروبا.

مثل هذه الأحداث ممكنة لدرجة مروعة، فالتهديدات حقيقية ولابد من مواجهتها. لكنها ليست التهديدات التي يمكن أن تصيبنا بأضرار بالغة في هذا العالم الكوكبي الجديد الذي يتسم بتغييرات جذرية.

ما الأمور التي تثير قلق رئيس الولايات المتحدة؟

إنه يقول لنا باستمرار: إننا أمة في حالة حرب.

إنه يقول لنا باستمرار: إنه يشعر بالقلق تجاه أمن بلادنا المادي، أي المرتبط بوجودها.

إنه يقول لنا باستمرار: إن الإرهاب خطر محدق.

إنه يقول لنا باستمرار: إنه مهموم برخائنا الاقتصادي.

إنه يقول لنا باستمرار: إن أموال الضمان الاجتماعي قاربت على النفاد.

إنه يقول لنا باستمرار: إننا في حاجة إلى سياسة أفضل للطاقة.

إنه يقول لنا باستمرار: إننا ينبغي أن نقلق بشأن تكلفة الرعاية الصحية، واحتمال أننا لن تكون لدينا القدرة على تحملها بعد ذلك.

إنه يقول لنا باستمرار: إننا لابد أن نعالج مسألة الهجرات غير المشروعة التي تعبر حدودنا.

كل المشكلات في تلك القائمة: إما تولدت عن مكان مضطرب في العالم، أو يمكن أن تتفاقم بسببه. كما أنه يمكن أن يجعل كل مشكلة في هذه القائمة أفضل أو أسوأ عن طريق معالجة اضطرابات المناطق المتخلفة في العالم أو تجاهلها.

إن التهديدات الحقيقية لا تأتي من القوات العسكرية أو الهجمات العنيفة، ولا تأتي من دولة قومية أو كيان مستقل معادٍ، ولا تنبع من أيديولوجية (ولا حتى من إحدى صور الإسلام المتطرف الذي يكره الغرب ويتسم بالعنف). وإنما تأتي التهديدات الحقيقية الجديدة من عدم الاستقرار، فالاضطراب والفوضى الذي ينشأ نتيجة عدم الاستقرار يمكن أن يسببا تغييرات ضخمة وخطيرة في أي مكان يحلاّ به.

كنت دائماً أتحدث مع رجال الأعمال أو العسكريين أو المحاربين القدامى، محاولاً شرح هذه القضايا. وكان جمهوري من المستمعين يتفهمون دائمًا معنى عدم الاستقرار، وكيف أن الاضطرابات يمكن أن تحطم أي مجتمع. وكانوا يشعرون بالأسى تجاه الشعوب التي تعيش في دول غير مستقرة، التي تعاني من انهيار عوالمها. لكنهم لا يرون عدم الاستقرار هناك بوصفه خطراً محدقاً هنا. فكيف سيعضنا الاضطراب؟ وأين هي أسنانه؟

أتلقى هذا السؤال مراراً وتكراراً: «إنني أصغي إليك يا جنرال زيني، وما تقوله معقول حقاً. فالناس يتحملون معاناة رهيبة، لكن ماذا بعد؟ هل علينا أن نفعل أي شيء في هذا الشأن؟ لا، فهذا جنون. إن كوارثهم لن تؤثر عليّ مطلقاً. فأين الخطر الشديد الذي يواجهني من ذلك؟ وأي تهديد عسكري يمثله؟ وهل ستقوم سوريا وإيران وأفغانستان والصومال وزيمبابوي بتكوين تحالف ضخم لغزو الولايات المتحدة؟ إن لدينا قدراً وافراً من الهموم هنا تحتاج مالاً واهتماماً. فلماذا ينبغي علينا أن ننفق أموال ضرائبنا لحل مشكلات لا تخصنا بأي حال؟».

بعد المحاضرة الرسمية، تكون لديّ عادة ساعة حرة يمكنني أن أثرثر فيها مع بعض أفراد الجمهور. وعلى نحو لا يتغير، تأتي أولى الشكاوي من نفس الناس الذين يعارضون بحماس فكرة أن الاضطرابات هناك لن تمسنا بسوء هنا: «يا بنيّ! هل تصدق ما وصل إليه سعر الوقود! لو زاد السعر عن ذلك سأضطر للتخلص من سيارتي». أو «لم أفكر قط أنني سأرى في حياتي مهاجرين جدد بهذا العدد يدخلون إلى بلادنا! هل وجودهم هنا بصورة مشروعة؟» أو «كان تفجير الحافلة وقطار الأنفاق في لندن رهيباً! أصبحت أخشى ركوب القطار». أو «إن الوضع الوظيفي في مدينتنا فظيع، فإن استعارة العاملين من أماكن أخرى بأجور زهيدة يقتلنا. وأنا أعمل في الإدارة، والأرجح أنني لن أتأثر بذلك حتى أتقاعد. لكني أشعر بالقلق على أطفالي. فقد يضطرون لمغادرة الولاية، وإلا فقد يضطرون للعمل في مطاعم ماكدونالدز لو أنهم بقوا فيها».

فبعدما ذكروا للتو بحماس أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا يوجد شيء سيئ في عالمهم، يقولون: إنهم غير مطمئنين للمستقبل إلى حد بعيد، ويشعرون بالقلق فيما يتعلق بالتغيرات المرتبطة بعدم الاستقرار. ومع ذلك، يعجزون عن رؤية التعارض بين مخاوفهم وبين رأيهم الأصلي بأنه ليس هناك ما يدعو للقلق.

إنهم يرون جزءاً من الحقيقة: فيحتمل ألا تضربنا عاصفة قوية حقيقية. وقد انتهت الحرب الباردة بالفعل. ولا يمكننا بعد الآن أن نضع خطاً مباشراً لا يمكن الجدال فيه من هنا إلى الكارثة إلى

الحرب العالمية الثالثة. قد تصيبنا أعمال عنف، كالتي ضربت لندن عام 2005، وكما أصابتنا عام 2001. لكن العنف لن يكون ضربة قاضية في شكل حرب عالمية ثالثة.

إن ما لا يرونه ليس الضربة القوية وإنما مئات من الضربات الصغيرة. فسنرى تغيرات، وستجتاح شواطئنا تغيرات تسببها الاضطرابات في شتى أنحاء العالم. فالكوكبية والعاصفة الكاملة كفيلة ذلك. ويمكن أن تفضي هذه التغيرات إلى كافة أنواع الاحتمالات. ولا يمكن لأحد أن يذكر الآن وفوراً الاحتمالات التي ستؤثر علينا وإلى أي درجة سيصل تأثيرها. ولكن من المؤكد أن بعض هذه التغيرات ستكون خطيرة وستؤثر علينا. ولن يكون مستقبلنا القريب طيب بالقدر الذي نحب أن نتصوره. بل وربما يتحول إلى مستقبل رهيب... أو حتى كارثي؛ فثمة كم هائل محتشد من التغيرات.

إننا الآن في مكان رجل كان ينام مع كوبرا، وعندما رحلت الكوبرا، بدأت الغرفة تعج بالنحل. فهل يمكن أن يقتله هذا النحل؟ يجوز نعم ويجوز لا. لكن حتى لو لم يقتله النحل، يمكن أن يجعل حياته مؤلمة وبائسة. فهل يعقل الآن ألا يقلقنا النحل بعد رحيل الكوبرا؟

هناك رجل في الخامسة والستين من العمر كان يتطلع طوال حياته للتقاعد. وكان يحلم بأن يشتري سيارة ضخمة جميلة ويستخدمها كسفينة أرضية للسفر السياحي في أرجاء الولايات المتحدة وكندا. وكان يعمل طوال حياته في مصنع محليّ لقطع غيار السيارات

المستعملة، انتظاراً لتحقيق حلمه، الذي كان يضمنه وعد بمكافآت النقابة المستمرة مدى الحياة، وخطة عظيمة للتقاعد. تعثر المصنع... وتم إغلاقه. وقام صاحب قطع الغيار بتحويل عملية التصنيع النهائي في المشروع إلى ماليزيا، فدمر ذلك خطة تقاعد الرجل. وكانت المدينة التي يعيش فيها تنهار؛ تفقد مشروعاتها وتفقد سكانها. كانت الوظائف الجيدة أمر أشد ندرة من أي وقت مضى، كما انخفضت قيمة العقارات، فلم يستطع بيع المنزل الذي اشتراه عام 1976 وكان يتوقع بيعه بربح وفير. إنه يتمتع بصحة جيدة، ويحتمل أن يعيش عشرين عاماً أخرى. ولكي يكسب قوت يومه، يعمل الآن في طهي شرائح «البرجر» كما يعمل في محطة وقود في وظيفة ليلية. لقد ضاع حلمه، وبالنسبة له دمرت حياته، وكل ما كان يعيش من أجله.

ويرى هذا الرجل أن الكوكبية والعاصفة الكاملة سببت كارثة مدمرة كأنها قنبلة فجرت منزله.

كم قصة من هذا النوع ستحدث؟ وكم موقفاً من هذا النوع يتحول إلى كارثة «حقيقية».

يتسلل عدد من قراصنة الحاسب (الهاكرز) الأفارقة إلى نظام الضمان الاجتماعي فيدمرونه، فيتوقف صرف شيكات الضمان الاجتماعي لمدة ستة أشهر. وكانت هناك سيدة مسنة تعتمد على شيك يصرف لها شهرياً، وهو دخلها الوحيد، وبدونه لن تتمكن من دفع الإيجار وستفقد مسكنها. فهل هذا تهديد خطير بما يكفي لإثارة قلقنا؟

يقتل وباء أنفلونزا الطيور أربعين مليون نسمة في مختلف أنحاء العالم، لأن الخدمات الصحية في الدول الآسيوية لا تتمتع بقوة مؤسسية، أو دراية بكيفية الوقاية. فهل كان ستالين على حق في أن وفاة شخص واحد مأساة، أما وفاة أربعين مليون شخص فبيان إحصائي؟

يستولي الشيعة المتعصبون دينياً على مناطق إنتاج النفط في الخليج العربي (حيث يوجد معظم احتياطي العالم من النفط) ويقررون أن يوقفوا الغرب الشرير بقطع إمدادات نفطهم، وعندما يمكنك أن تجده يكون سعر الجالون من البنزين 25 دولاراً، فينهار اقتصاد العالم.

تفككت باكستان مثل يوغسلافيا السابقة، وفقدت بعضاً من أسلحتها النووية، التي يحتمل أن تكون في أيدي القاعدة. واستخدمت البعض الآخر في الهجوم على أهداف هندية، فقام الهنود بالرد.

دخلت دول آسيا الوسطى ـ التي تنتهي أسماؤها باللفظ «ستان» ـ في حرب محدودة المستوى بعضها مع بعض، وفرّ مئات الآلاف من اللاجئين.

تغرق زيمبابوي في مستنقع إبادة جماعية مثل رواندا.

إن آثار العاصفة الكاملة لا تقتصر على أناس وأماكن خارج حدودنا، بل يمكنها أن تصل إلينا أيضاً. فالاضطرابات الكوكبية تعطل التجارة والاستثمار، وتسبب هبوطاً مفاجئاً في الاقتصاد العالمي: أنا عاطل عن العمل، وزوجتي تعمل بنصف أجر، وليس بمقدوري دفع ثمن

الوقود للشاحنة الصغيرة التي أملكها، ولا نستطيع دفع مصروفات دراسة أطفالنا ولا يستطيعون أخذ قروض أو أي مساعدات أخرى، وسيضطرون لترك المدرسة. أصبت بأنفلونزا الطيور، هناك عصابة من الهسبان* تملأ شوارع حينا بالعقاقير المنشطة، قام بعض المسلمين الغاضبين بتفجير المركز التجاري في الجوار... العاصفة الكاملة.

لم تعد التهديدات التي نواجهها اليوم من نوع واحد ـ كما كانت أثناء الحرب الباردة، ولا تأتي كلها معاً في كارثة واحدة مدمرة، ولا من مصدر قوي واحد.

إنها موزعة ومتنوعة، وستضربنا من جهات لا نتوقعها، وفي أماكن غير متوقعة وقد تتخذ أو لا تتخذ صوراً عنيفة. والأرجح أنها ستظهر في الأمور المرتبكة مثل الإخفاق في الرعاية الصحية أو الهجرات أو التخبط الاقتصادي أو فقدان الوظائف. وليس لشيء من هذه الأمور في حد ذاتها أو من تلقاء نفسها القدرة على تدمير مجتمعنا، أو تؤثر عليه تأثيراً شديداً. لكن في حالة تراكمها يمكن أن تكون لها آثار قوية.

إنه الموت بآلاف اللسعات.

ربما أضطر للعيش في منزل أصغر وأكثر تواضعاً. وقد لا يكون بوسعي قيادة سيارة كبيرة مريحة، أو الذهاب للعشاء في مطاعم فاخرة. وقد لا أستطيع بعد الآن أن أضع طعاماً طيباً متكاملاً على مائدتي، أو أن أقضي إجازات رائعة في إيطاليا أو فرنسا أو وأيومنج.

* الأمريكيون من أصول أمريكية لاتينية. (المترجمة)

وقد لا يستطيع أطفالي بعد الآن أن يتطلعوا إلى حياة أفضل من تلك التي عشتها. وربما أضطر إلى خفض مستوى توقعاتي، لأن الدولة لن تتمكن من المنافسة بعد الآن، لأن المنافسين الآخرين سحبوا الوظائف والاستثمارات. وستؤثر كل هذه التغيرات تأثيراً قوياً وواضحاً على حياتنا وعلى إحساسنا بالأمان وعلى صحتنا ورخائنا الاقتصادي.

بالتأكيد ستكون هناك وظائف لأطفالنا، وستكون عندهم أسواق تجارية، ومحال شهيرة. ويمكننا وضع قيود على المهاجرين الذين يستولون على وظائفنا بوضع قيود على المهاجرين الذين يأتون لبلادنا. لكن ليست هذه هي الحياة التي أرادها أو توقعها أطفالنا أو التي وعدوا بها.

وبالتأكيد سيبقى مجتمعنا ويستمر، لكنه لن يستمر كما هو عليه الآن.

ومع ذلك، يقول لي باستمرار من يتمتعون بحسن النية: «حسناً، ليس هناك تهديد عسكري حقيقي، وليست هناك كوارث مفجعة تنتظرنا. والإرهاب مخيف، لكنني أعيش في قلب المدينة ولن يهاجمونني حيث أعيش».

إن الأمر يشبه الإصابة بخمسة أمراض، ولن يتسبب أي منها في موتنا، لكن اجتماعها معاً يمكن أن تضر بنا ضرراً بالغاً، بل حتى قد تؤذينا بصورة دائمة ـ أو حيث لا يرجى شفاء. لكننا بطريقة أو بأخرى لا نرغب في عمل أي شيء بشأن حالتنا، ونقول: «حسناً، إنه ليس سرطاناً».

إننا نشبه في جوانب عديدة أوروبا فيما يسمى بالعصر الجميل أثناء إرهاصات الحرب العالمية الأولى، فقد كان يقال: «لا تقلق، إن الدول في حالة تعبئة، لكن الأمر ليس خطيراً. فإذا اشتد الصراع سيتولى أمره شخص ما. إن الحياة حلوة، والإمبراطورية في سلام ورخاء، وليست لدينا أي مشكلات».

مع ذلك، ربما نتجه نحو الكارثة بقوة، ولكن الكارثة هذه المرة لن يعلن عنها هدير المدافع، بل ستعلنها لسعات النحل.

إننا نعمي أنفسنا عن الأمور السيئة القادمة، ونعيش حياتنا. وحتى عندما تكشف التغيرات الخطيرة عن نفسها، نتجاهلها لأنها تزداد قدراً ضئيلاً من السوء يوماً بعد يوم... مثل ضفدعة في قدر ماء لا تشعر بازدياد سخونته شيئاً فشيئاً.

فهل سنتصرف لمنع الكارثة أم لا؟

لدينا خيارات ثلاثة بناء على التصورات الثلاثة الآتية:

الأول: ستكون التهديدات التي سببها عدم الاستقرار مؤقتة. وسيكون تأثيرها على الدولة، إن وجد، ضئيلاً، وسنتجاوزها دون أن تترك ندبات عميقة. وسنستمر جميعاً في ممارسة حياتنا بالأسلوب الذي تسير عليه الآن ـ مع كل وسائل الراحة والثقة والأمان والرخاء الاقتصادي، الذي نشعر أن معنا حق في توقعه.

الثاني: ستغيرنا التهديدات التي سببها الاضطراب. وسوف نتجاوز خلال السنوات القليلة التالية، لكن مع ندبات وتغيرات سلبية هامة في مجتمعنا وفي وسائل الراحة والثقة والأمان والرخاء الاقتصادي.

الثالث: ستمثل التهديدات التي سببها الاضطراب تحدياً خطيراً، وربما تحدياً كارثياً لمجتمعنا. وستغير طريقة حياتنا تغييراً جذرياً للأسوأ.

أحد هذه التصورات هو ما سيحدث، وليس بوسعي أن أحدده. فإذا كان التصور «الأول» إذن يمكننا أن نتجاهل الاضطراب باطمئنان. فستستمر حياتنا في المسار السعيد الذي كنا نسير فيه.

أما إذا كان ـ في أفضل الأحوال ـ التصور «الثاني»، أو في أسوأ الأحوال التصور «الثالث»، فسيغير الاضطراب حياتنا، وستتوقف خطورة التغيرات على طبيعة الاضطراب التي لا يمكن التنبؤ بها. ونحن بالتأكيد لا نريد التصور «الثالث»...

ولدينا خيار واحد، إما أن نبذل قصارى جهدنا لخلق الاستقرار والنظام في العالم. أو ألا نفعل أي شيء سوى أن نتمنى ونراهن على أن الاضطرابات والفوضى القائمة هناك لن تهاجر إلى هنا ـ مع إدراكنا أن تلك الحواجز الحديدية والإليكترونية لن تحكم إغلاق حدودنا أبداً.

خلصت من خبراتي في القيادة المركزية إلى عدة استنتاجات كانت تتشكل في ذهني عبر سنوات عملي في أشد مناطق العالم تذبذباً. وهذه الاستنتاجات نفسها يمكن أن تنطبق على العالم غير المستقر بأسره:

- إن المشكلات القائمة هنا «ستأتي» لتؤثر علينا جميعاً في الجزء المستقر من العالم، ويحدث هذا بتكرار يتزايد باستمرار.

- لن تستغرق المجتمعات المضطربة وقتاً طويلاً لكي تسقط من فوق الحافة.

- إن الحفاظ على معظم هذه المجتمعات من السقوط من الحافة لن يستغرق وقتاً طويلاً.

- أخفق العالم الأول ـ الجزء المستقر من العالم ـ في فهم التغيرات الحادثة في العالم خلال العقدين الماضيين، مما جعل هذه المشكلة خطراً متنامياً على استقرار الكوكب وأمنه.

- من الصعب دفع العالم الأول سواء إلى الاهتمام بالاضطرابات في هذه المنطقة، أو إلى المساعدة في حلها قبل أن تتحول الأوضاع هناك إلى كارثة.

- يجب علينا أن نفهم هذا الجزء من العالم بدرجة أفضل مما نحن عليه الآن. ويجب أن نفهم بصفة خاصة لماذا تحول إلى خطر يهدد استقرار العالم، ولماذا من مصلحتنا أن نساعد على الاستقرار هناك. وأخيراً، يجب أن نفهم ما الذي نحتاجه للمساعدة في تغيير الأمور هناك، وكيف أننا نحتاج إلى القيام بذلك.

يواجه العالم بأسره خياراً واحداً: إما أن نكرس الوقت والجهود والحكمة اللازمة لبناء نظام يمكن أن يتعايش فيه الجميع (مثلما حدث في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية) أو ندع الطبيعة تأخذ مجراها (مثلما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، حينما أتاح

الفشل العالمي المباشر في اتخاذ إجراء ما ظهور «نظام النازي» في ألمانيا المضطربة).

ليس المطلوب إحياء عبء الرجل الأبيض بصورة تناسب القرن الواحد والعشرين. فمهمتنا في العالم المتقدم ليست أن نأمر ونوجه، بل أن نساعد ونعين ونبث القوة. والمجال هنا مفتوح للراغبين في العمل على اختلافهم، من حكومات ومنظمات إقليمية ودولية ومنظمات غير حكومية، والتحالفات الدولية المنشأة لأغراض معينة، والأفراد، والجماعات والمؤسسات القائمة داخل الدول، وكل من يريد أن يقدم المساعدة، وكل من يستطيع العمل مع الآخرين، وكل قادر على أداء هذه المهمة أداءً فاعلاً.

ينبغي ألا ننظر إلى هذه الأعمال بوصفها «معونة أجنبية» تلقي ببلايين الدولارات في بالوعة الفساد، وإنما بوصفها استثمارات لأمننا واستقرارنا. وعن طريق مساعدة الآخرين ـ وهذا في حد ذاته أمر طيب ـ نحد كثيراً من الأخطار التي تهدد حياتنا وأمننا.

كلف غزو العراق واحتلاله أمتنا حتى الآن نحو 300 بليون دولاراً من ثروتنا التي لا يمكن القول بأنها لا تنضب، وأزهق أرواح أكثر من ألفيّ أمريكي، وأضعاف ذلك العدد من العراقيين. ألم يكن من الأفضل إنفاق هذا القدر في السنوات السابقة على سبتمبر 2001 في بناء الاستقرار والنظام في المنطقة.

أمريكا لابد أن تكون خيّرة

إن أمتنا أقوى أمة على وجه الأرض، وهي تملك منظومة من القيم والقانون نعتقد أنها لا تبارى. فأمريكا هي «المدينة المباركة»* ونحن نمتلك نموذجاً أثبت صلاحيته طوال مائتي عام للأمن والسلام والازدهار وصلاح الحكم والأمل، نقدمه للمجتمعات التي تواجه خطر الفشل، ونستطيع أن نستخدم كل بعد من أبعاد قوتنا في مهمة بناء النظام والأمن والسلام في كل مكان نختاره تقريباً (ولكن ليس في كل مكان في نفس الوقت).

ويمكننا استخدام الدبلوماسية والوساطة في تنفيذ هذه المهمة. كما نستطيع أن نقدم خبرة بناء القدرات، حيث نساعد في إرساء حكم القانون والإسهام في إنشاء المؤسسات الأساسية. ونستطيع كذلك أن نحرك العمليات السياسية في هذا السياق عن طريق استخدام القدرة على نشر المعلومات في المجتمعات، التي تخضع فيها المعلومات لعمليات المراقبة والتحكم، أو حيث لا تتوافر البنية التحتية لتوصيل المعلومات. وكذلك بوسعنا توفير القدرات الأمنية، فنساعد في توفير النظام إن كان غائباً، ثم بناء منظومة تستعيد قدرة المجتمع على فرض النظام، كما نستطيع أن نقدم المعونة الاقتصادية والمعونات الإنسانية، وأن نعاون الناس على تجاوز مراحل التغير الاجتماعي فليس هناك من أمة لها قدرتنا على فعل الخير.

وبرغم ذلك، يرى كثير من شعوب العالم أمريكا صورة أبعد ما تكون عن الإيجابية. وبرغم أننا نحب أن تُحترم حرياتنا وثقافتنا بين هذه

* كناية عن السمو، وكأنها «الجنة» ـ مثل القدس في التراث اليهودي. (المترجمة)

الشعوب، لا نجد ذلك في الواقع. ففي أنحاء كثيرة من العالم تعد هذه الحريات وهذه الثقافة مصدر تهديد وخطراً وسبباً للعداوة.

فلماذا؟

من السهل أن نستبعد مفردة الكراهية ونسميها حسداً، ولكن ينبغي أن نقف هنا؛ فمنذ أعوام قليلة، في أعقاب 11/9، كانت الفئة الوحيدة التي تكرهنا هم من قاموا بالتخطيط للهجوم وتنفيذه، وأصدقاؤهم، وأي شخص آخر لم يكن يحبنا لأننا أصدقاء أعدائه. أما إذا رجعنا لزمن قبل ذلك ــ ولنقل عقداً قبل ذلك ــ فكانت الشعوب التي تحبنا أكثر كثيراً من الشعوب التي لا تحبنا.

فماذا حدث؟ إذا كنا نستطيع أن نشكل البيئة من حولنا، فكيف نعجز عن إغراء الناس بالانضمام إلينا؟ كيف خلقنا الكراهية وعدم الثقة في مواقف كثيرة برغم نوايانا الطيبة؟

أعتقد أننا لابد أن نواجه أيضاً حقيقة أننا أكثر المجتمعات قدرة ــ في التاريخ ــ على التأثير في البيئة، ولكن ذلك لا يعني أننا قادرون على التحكم في البيئة القائمة أو خلق بيئة جديدة.

كما أعتقد أننا ينبغي علينا مواجهة حقيقة أننا لا ندرك حجم قوتنا أو كيفية استخدامها، فلسنا على وعي كافٍ بالطرائق التي نتواصل بها مع البيئة ونؤثر فيها أو نشكلها.

يسعى قادتنا في واشنطن إلى وضع سياسات واتخاذ إجراءات في العالم من حولنا من شأنها أن تأتي بنتائج طيبة، ودوافعهم نبيلة

وكريمة وطيبة، ولكن خطأ قادتنا يكمن في نظرتهم السطحية لما يجري في العالم، وافتقارهم إلى فهم التعقيدات والنقاط الدقيقة الغامضة، التي تتسم بها الأوضاع على الأرض، (وهو فهم لا يتوفر إلا لمن جنى خبرة طويلة من العمل في الخندق) ومثل جميع الأمريكيين، يحب قادتنا الوضوح والبساطة في كل شيء، والمجتمع الأمريكي مجتمع سريع الإيقاع، فنحن نريد أن نعرف حالة الطقس في خمس عشرة ثانية، وأن نعرف الأخبار بالنظر إلى العناوين، ونريد أن تكون كل القضايا بسيطة، لأننا نريد الترفيه ولا نريد مناظر مزعجة لأجزاء مضطربة من العالم، لكن الأمور في العالم لا تسير على هذا النحو.

وهكذا لا يعي قادتنا أن تحريك قضية ما بطريقة ما، قد لا يحدث الأثر الذي ينشدونه، وربما أفرز نتائج من الدرجة الثانية والثالثة لم تكن في الحسبان، وربما أطلق سلسلة من الأحداث يمكن أن تتفاقم حتى تصل إلى حد الكارثة.

إن إنجاز نتائج طيبة يعني أكثر من مجرد التصرف بحسن نية ودوافع نبيلة، بل يعني إدراج «كيفية» تحقيق النتائج الطيبة من البداية إلى النهاية، ويعني أن من يتصرف يدرك ما ينبغي أن يفعله حتى يحقق تلك النتائج الطيبة.

على الأمريكيين إدراك أننا لم نعد ننعم بالعزلة بعيداً عن العالم المضطرب.

وينبغي أن نفهم أن مصلحة أمريكا ألا تتسع رقعة المناطق الغارقة في بحر من الأوضاع المضطربة. فالمشكلات التي ستنتج ستكون مشكلاتنا، فنحن في مرحلة تاريخية يكون فيها إنجاز الأهداف الخيّرة النبيلة، التي تتسم بالإيثار متعانقة مع تحقيق الأهداف العملية التي ترعى مصالحنا الذاتية ووجودنا وأماننا ورفاهتنا وتطورنا في المستقبل. فنحن في واقع الأمر نحتاج عاصفة تستجيب لعاصفة أخرى هبت لتهددنا، وهنا يتعانق ما هو خير وصواب أخلاقي مع ما هو عملي. لسنا مضطرين للاختيار بين بديلين في لعبة الرابح فيها لا يجني شيئاً. فمن صميم مصلحتنا أن نعيش في عالم مستقر آمن مزدهر، لأن هذا هو العالم الذي يتيح لنا أعلى درجات الازدهار.

إن إيجاد مثل هذا العالم يقتضي إحداث تغييرات كبيرة في أنماط تفكيرنا وبنيتنا التنظيمية وتخطيطنا والإجراءات التي نتبعها، بينما نرسم مسارنا القومي وسط ظروف غير مضمونة في عالم اعترته تغيرات جذرية.

يحكى أنه في زمن ماضٍ بعيد... بعيد كانت أمتنا قادرة على تحقيق السلام والأمن والرخاء، عن طريق الحفاظ على عزلتنا عن بقية دول العالم. لكن العزلة لن تحقق لنا الآن ذلك مطلقاً. فقد قضى عليها الزمن، ولا تصلح العزلة في عالم اليوم مثلما كان يستحيل استخدام مزارعي السخرة في عهد جيفرسون. ويتضح لنا يوماً بعد يوم أن تحقيق الرخاء والأمان يستلزم العمل على إيجاد عالم مستقر، فليس بوسعنا أن نترك أجزاءً مضطربة من العالم بلا رعاية.

إن «معركة السلام» ليست معركة بالمعنى التقليدي ـ معركة تلي صفعة فجائية، وأزمة تخلف صراعاً عسكرياً ـ فالمعركة هي الكفاح المتواصل من أجل إيجاد وتنفيذ الإجراءات والبرامج والأنظمة والمؤسسات التي من شأنها منع الأزمة. المعركة هي الكفاح المتواصل لتشكيل العناصر الضارة في البيئة التي تولد حالات عدم الاستقرار والسيطرة عليها.

إن «معركة السلام» هي المعركة التي تهدف إلى الوصول إلى عالم مستقر.

تعقيب

وقت للرؤية والقيادة والتغيير

«حتى يتحقق التقدم الدائم... لابد من إنجاز خطوات فاعلة في تنمية المؤسسات الحكومية والاقتصادية على المستوى المحلي ومستوى المناطق والمستوى القومي. وعندها فقط يستطيع شعب الأنبار أن يدرك هدفه وهو تحقيق الأمن طويل المدى والازدهار والثقة بحكومته».

ريتشارد سي. زلمر
قائد للقوات الأمريكية في منطقة الأنبار ـ العراق
سبتمبر 2006

يواجه الأمريكيون بعد أربع سنوات من غزو بلادنا للعراق واحتلاله حقيقة مؤلمة، وهي فشل أمتنا في تحقيق أهداف إدارة بوش الطموحة لهذه الأرض المنكوبة.

وعدنا الشعب العراقي بالحرية والديمقراطية والأمن وبحياة جديدة أفضل كثيراً من ذي قبل، ومع ذلك ها نحن بعد سنوات طويلة وصعبة من الصراع لم نستطع إلى الآن إنشاء الدولة التي وعدناه بها. بل على العكس، أثمرت الشجاعة وجهودنا باهظة التكاليف نتيجة لم تتوقعها حكومتنا أو تقصدها ـ دولة فاشلة تخرج عن السيطرة، وتتجه نحو الفوضى والحرب الأهلية.

فأين جذور هذا الإخفاق؟ وأين نبحث لنجد المسؤول عن هذه الخسارة الفادحة؟

هل نستطيع أن نلوم قيادتنا العسكرية على الأرض في العراق؟

أبداً.

فقد رأى الجنرال زلمر وزملاؤه من القادة المتميزين مفتاح نجاح المهمة في العراق بوضوح، وهو بناء المؤسسات من كل مستوى. وما فتئوا يذكروننا بأن الانتصار العسكري بالمعنى التقليدي ليس سوى البداية، لما ينبغي فعله لتحقيق ذلك النجاح. فإن تحقيق نصر عسكري على المقاومة المنظمة ما هو إلا فتح باب على مهمة هي على الأرجح أصعب كثيراً من المواجهة العسكرية. فقد لا تكون النهاية الناجحة لعمليات قتالية كبرى سوى بداية أو طريقة لخلق حركة وبسط موقف أمني مواتٍ مستقر نسبياً، ليس إلا عملية شراء وقت، فإن لم نبن الأمل من خلال إنشاء المؤسسات التي تحفظ الاستقرار وتبث الثقة، سنفقد الحركة ونفشل.

وعدنا ببناء دولة عراقية جديدة في كل الجوانب، ولا يزال العراقيون ينتظرون منا أن نفي بوعودنا.

لماذا؟

نحن الآن نعرف إجابات هذا السؤال:

استخبارات ضعيفة، وغياب التخطيط، ودافعية سياسية خاطئة، ووضع أناس لا يتسمون بالكفاءة، ولا تميزون بالخبرة في مواقع

رئيسة، وافتراضات مغلوطة، وغياب فهم الثقافة العراقية، وغطرسة وتلفيق، وقائمة الأخطاء تطول وتطول.

مع ذلك لا يسعنا أبداً أن نقف عند هذا الحد؛ فالمشكلة تتجاوز ضعف الاستخبارات والتخطيط السيئ والدافعية السياسية المغلوطة.

فإننا الآن نحمل عبء بنية حكومية وحزمة من الممارسات لا يمكن أن تفضي إلى جهد تعاوني متكامل من كل الوكالات، ولا تستطيع تعيين أناس أكفاء يديرون هذا الجهد، ولا تضع البرامج المعقدة الضرورية لإعادة بناء مجتمع مر بتجربة شديدة الإيلام؛ فقد صارت البنى والممارسات الحالية متخلفة وغير فاعلة، فهي تعجز عن التعامل مع الفوضى العالمية الجديدة التي ظهرت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي أو بتأثير التحول في البيئة الجديدة المليئة بالتحديات. ففي عالم يفرض تعامل سريع مع المعلومات وتحويلها إلى أشكال قابلة للاستخدام تتخذ على أساسها القرارات، وتبنى عليها الإجراءات، نظل مقيدين ببيروقراطية خانقة، وفي عالم يحتاج إلى تنشئة قادة بمواهب مميزة وتقديمهم، فإن أولويتنا تذهب لمكافأة الولاء السياسي، وفي عالم يعج بالتحديات التي تضغط على مواردنا المحدودة، نستمر في السماح ببرامج خاصة والبرامج الضخمة التي ينالها المقربون، وتضعضع ميزانياتنا.

أهدانا آباؤنا المؤسسون مفهوماً مميزاً وخالداً للحكم، وربما أصابهم الفزع إذا رأوا النظام الذي نشأ لتطبيق مفهومهم. ولا يمكن لهذا النظام أن يكون فاعلاً في عصر التكنولوجيا العالية، وسرعة

تبادل المعلومات، وسرعة اتخاذ القرار، فقد تحول النظام إلى وحش ضخم غير كفء، وليس نظامًا كفئًا مخططًا يحتاجه عالمنا الحاضر.

وعلى سبيل المثال، فحق المواطنين في مقاضاة حكومتهم مبدأ عزيز ورّثه لنا المؤسسون، وقد تحول هذا المبدأ العزيز إلى نظام تكتلات شارع ـ ك ـ، المفسد وصاحب التأثير الطاغي، الذي يهيمن على صنع القرار الحكومي بطريقة يفزع لها الآباء المؤسسون.

وقد أدرك أغلب الأمريكيين اليوم أننا لا نستطيع بعد الآن أن نخدع أنفسنا، ونصدق أن بوسعنا الازدهار وضمان أمننا ونشر قيمنا ومثلنا التي نعتز بها، إذا عزلنا أنفسنا عن بقية العالم ومشكلاته. كما ينبغي أن ندرك أننا لا نستطيع أن نستمر في قبول البنى والممارسات الحكومية العتيقة، التي تقلل فاعليتنا وكفاءتنا في عالم سريع الحركة والتغير.

وعلينا في الوقت نفسه أن نقاوم بحزم ذلك الإغراء القوي بأن نرفع أيدينا ونقبل الهزيمة عندما نواجه صعوبة تغيير بيروقراطية ضخمة أو استبعاد ممارسات تهدر الموارد، وتروّج لعدم الكفاءة، وتكافئها بالدعم السياسي. ومن أسفٍ أن المساءلة بدت كأنها صارت مبدأ قديم لا يطبق إلا قليلاً.

وأخيراً، ينبغي أن يكون لدينا تقدير حقيقي لعالم شهد تحولاً ضخماً، وتكون لدينا رؤية لكيفية بقائنا ونجاحنا في هذا العالم الجديد.

إن هذه المرحلة المربكة وغير المسبوقة على الإطلاق تحتاج قيادة جريئة لها إرادة مواجهة هذه التحديات.

فأين قادة اليوم وزعماء اليوم؟ أين رجال الحسم مثل ترومان؟ وأين الرجال النابهون مثل مارشال؟ وأين الأذكياء أصحاب البصيرة مثل كينان؟

لماذا نقبل أعضاء كونجرس يعلنون بفخر أنهم لا يملكون جواز سفر أو يروجون لسياسات مضللة هدفها إعادة الأمة إلى عزلة مستحيلة زمنها القرن التاسع عشر؟ لماذا نسمح لعواصف العراق وكاترينا أن تعربد لشهور أو لسنين دون محاسبة حقيقية؟ لماذا سمحنا لسياسات وسياسيين بتقسيمنا إلى معسكرات متنافرة من الأحمر والأزرق؟ فكلنا أمريكيون.

قال أحد أصدقائي وهو مسؤول حكومي كبير سابق: إننا الآن نصدر الخوف والغضب والغطرسة، بينما كنا معروفين بتصدير الأمل والإلهام والحماس. فقد ظللنا منارة الأمل الإيجابي المشرق في أصعب الأوقات، في الحربين العالميتين والحروب الباردة والأزمات من كل نوع، ماذا حدث لتلك المنارة؟

يحتاج زمننا هذا إلى قيادة حقيقية، قيادة يمكنها أن ترى العالم على حقيقته، وأن ترى ضرورة التدخل الحكيم في هذا العالم بسبل تجعلنا جميعاً أكثر أمناً وثقة بمستقبلنا، سبل تنتج إستراتيجيات مجدية، وسياسات تخلق السلام والازدهار، وتسمح لنا بحفظ افتخارنا

بهويتنا وأسلوب حياتنا مع مساعدة الآخرين على المشاركة في ثمار هذه الأرض التي أُنعم علينا بها، قيادة تتجاوز سياستها حدود الحزبية.

ستواجه تلك القيادة تحديات إعادة بناء الحكومة، ومكافحة الممارسات القديمة البالية المتجذرة، وستعلو فوق السياسات الحزبية وهي تتولى نظاماً سياسياً انتزع التأييد من الحزبين السياسيين الرئيسين ـ شبكة علاقات «الأصدقاء القدامى المحببين» التي تعتمد على أنظمة عتيقة لا تتسم بالكفاءة وغالباً ما تتسم بالفساد، تستمد منها وجودها السياسي ومكاسبها الشخصية. ولابد لهذه القيادة أن تروج للخبرة والكفاءة والذكاء والنزاهة وتعلي قدرها وتتجنب المحسوبية.

أقنع عدد كبير جداً من الأمريكيين أنفسهم باستحالة تغيير حكومتنا برغم إدراكهم الواعي لضرورة التغيير، ويذعن كثير جداً منا إلى الرأي القائل بأن التغييرات التي نحتاجها مغالية في المثالية وغير محددة بدرجة تمنع تحققها، ويكتفي كثير جداً منا بالبكاء على أحوالنا الحالية أو اقتراح تغييرات طفيفة هامشية: كأنها تنازل أمام البيروقراطية، التي تفشت وتعمقت في عقولهم بحيث لا يمكن تغييرها بأي قدر مؤثر.

ومع كل المشكلات والتهديدات التي نواجهها لدينا رئيس مضطر (مثل سابقيه) أن يتحمل مسؤولية حملاته الانتخابية وزيادة الموارد وسط قضايا الدولة الضاغطة.

أريد رئيساً لا ينصب اهتمامه على السياسات الحزبية أو إعادة الانتخاب، أريد رئيساً يصب اهتمامه على القضايا المثارة في هذا الكتاب، ولا أريد مستشاراً سياسياً في البيت الأبيض له شهرة أوسع وتأثير أكبر من مستشاري الرئيس للإستراتيجيات، وأريد من هؤلاء المستشارين الإستراتيجيين أن يكونوا بمنأى عن تأثير كل السياسات.

فهل حان الوقت أن تكون الرئاسة لمرحلة واحدة؟ مرحلة رئاسية واحدة مدتها ست سنوات لا تتخللها دعاية انتخابية لحزب أو لمرشحين؟ فحينها يستطيع الرئيس أن يعلو فوق السياسة الحزبية، ويصل إلى مستوى رجل الدولة الحقيقي، الذي لا تعوقه التزامات سياسية أو واجبات أو ولاء.

كما ينبغي أيضاً أن نحسم تلك المعركة الخطيرة الخاصة بتوازن القوى التي برزت مؤخراً؛ فالمسؤول التنفيذي حالياً مصمم على انتزاع السلطة الكاملة من الجهة التشريعية، وتحويلها إلى مجرد خاتم مطاط يمهر القرارات التنفيذية. فالتنفيذي يتجاهل بغطرسة التزامات الهيئة التشريعية الدائمة، التي تتمثل في النظرة العليا العامة وصياغة القوانين؛ فتقوم بتأويل القانون من طرف واحد وتقاوم المراجعة القضائية. وتقوض هذه الأفعال الخطيرة أسس مفاهيم الحكم لدينا.

صحيح أنه سيكون هناك دائماً توتر صحي وطبيعي بين الهيئات الحكومية المختلفة، لكن غيبة إشراف الكونجرس والمراجعة القضائية للأداء التنفيذي ينبغي أن تثير قلقنا؛ إذ يقوم مفهومنا في الحكم على أساس توازن حقيقي بين الهيئات القضائية والتشريعية والتنفيذية.

وعندما تسعى هيئة منها إلى انتزاع ميزة أو التسبب في إحداث عدم توازن ينبغي على أعضاء الهيئتين الأخريين الدفاع عن حدوديهما والتسامي فوق الانتماءات السياسية الحزبية. وبرغم أننا نجد أمثلة نبيلة لأناس في الحكومة يضعون المبدأ فوق السياسة؛ فإننا كثيرًا ما نجد أعضاء في الكونجرس يتخلفون عن الدفاع عن المبادئ التي انتخبوا للحفاظ عليها ودعمها. والحقيقة أن هناك ولاء أسمى من الولاء الحزبي، وينبغي أن يواجه أعضاء الكونجرس تهم عدم الولاء بشجاعة، ويستردوا ثقة ناخبيهم، ويكونوا أهلاً للمصداقية. وإذا أخفقوا في ذلك فعليهم أن يواجهوا العواقب الانتخابية.

إذا أردنا حكومة عصرية تتوافق مع مطالب العصر، فعلينا أن نواجه النظام الذي يخدم نفسه، ويهدد بتصلب النظام كله وشله. وقد آن الأوان لوجود مفوضية تشريعية ثنائية الحزب، تنظر بعمق للبنى والممارسات الحكومية بهدف تقديم مقترحات لإصلاح نظامي شامل، وينبغي أن نفعل مثل الشركات الحديثة، ونتكيف مع عالم متغير.

كما ينبغي أن نعيد النظر في عمليات سياسية أخرى، مثل الحملات الانتخابية، والتصويت. إننا نحتاج لإصلاح جدي لمسألة الحملات الانتخابية ونحتاج لنظام واحد لإجراءات التصويت على مستوى الأمة، وينبغي أن يتعلم كل طالب في المدرسة الثانوية في أمريكا نظاماً واحداً عاماً للتصويت: كجزء من منهج التربية الوطنية.

أظهر استطلاع للرأي أجرته شبكة سي إن إن حديثاً أن 78٪ من الأمريكيين يشعرون بأن حكومتنا على الأقل غير كفئة وربما منهارة. وكانت انتخابات العام 2006، التي أعطت الديمقراطيين السيطرة على المجلسين التشريعيين، دليلاً على هذا السخط. ولكننا بعد عامين سنشعر بالشيء نفسه، وننقلب على شاغلي هذه المقاعد.

سنكون دائماً في شك ونرتاب في الحكومة، وهذه الصفات هي من أفضل صفاتنا القومية؛ فهي تدخل في الحمض النووي لدينا، وهي ثمرة إيجابية لماضينا الثوري.

لكن السخط الحالي يتجاوز ذلك، فهناك غضب عميق وعدم ثقة بالحكومة. فلا يقدم أي من الحزبين السياسيين نوع الحكم الذي يرده الشعب، فاهتمامهم بتقديم حكومة أفضل أقل من اهتمامهم ببناء ميزانيات هائلة، وآلات سياسية ضخمة تصل حتى المستويات المحلية وتقسيم المناطق الانتخابية لضمان السيطرة السياسية. فماذا يحدث عندما «يذهب السيد سميث إلى واشنطن»؟ هل يفسده النظام؟ هل تضيع براءته ومثاليته في آلة النظام السياسي الضخمة المتغطرسة؟.

لا يمكن للغضب وعدم الثقة أن يستمرا، وبدلاً من تغيير الأفراد في الحكومة ينبغي أن نفكر في تغيير النظام الذي يحبط المسؤولين المنتخبين المفعمين بخير المقاصد، ويحكم عليهم بالفشل.